المحاضرة الرابعة: مكونات النص القرآني: اللفظة والعبارة، الآية والسورة

1_ اللفظة والعبارة:

اختصَّت ألفاظ القرآن الكريم بالجمال والكمال والدقة والإحكام ما أدهش البلغاء وأعجز الناظرين، واشتملت كل كلمة منه سواء أكانت مفردة أم مركبة على معان عميقة ومتجددة في كل آية من القرآن الكريم مهما تكررت، وإن كان الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) اعتبر أن اللفظ والحرف ليس لهما أثر في كون الكلام بليغًا أو غير بليغ، وإنما الأثر في مجموع ما يدل عليه النظم، وشكل النظم ليس هو المؤثر وحده، إنما تساوق المعاني وتلاقي الألفاظ وتآخيها هو الذي ينتج المعنى المؤثر، واستدل على نظريته بأدلة كثيرة[1]، فإن فريقا آخر من العلماء منهم الجاحظ وابن الأثير رأوا أن للحروف والكلمات فصاحة عندما تتلاءم صفاتها ولا تتجافى مخارجها ولا يكون فيها ثقل ولا تكرار، وأن تخيُّر اللفظ يتطلب قدرة تختلف من شخص لآخر، وإذا كانت المعاني البلاغية لجملة القول، ففي اختيار الألفاظ المتناسبة في نغمتها وفي رنَّتها قوية أو هادئة دخل في ذلك، وهذا ما رآه الكثير ممن بحث في ألفاظ القرآن الكريم من المتأخرين، قال الرافعي: "لما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحانًا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها في توقيعها، فلم يتفهَّم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم حتى إنَّ من عارضه منهم كمسيلمة جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظمًا موسيقيًّا أو بابًا منه، كأنه فطن أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها"[2].

قد يكون لذلك الخلاف وقع على مستوى عامة الكلام العربي، لكن على مستوى القرآن الكريم لا وقع له على الإطلاق، لأنه فصيح بحروفه وكلماته وعباراته جميعا، وما يبدو خلافا سببه أن بعض علماء الفصاحة ركز على ناحية دون أخرى في نظره للقرآن الكريم، قال أبو زهرة: " هذان رأيان يبدو أنَّهما متعارضان في كون فصاحة الكلمة جزءًا من البلاغة أو الفصاحة، وإن لم يكن بينهما فرق، فالأول لا ينظر إلى الجزء وهو الكلمة، بل لا ينظر إلا إلى المجموع المؤتلف، والآخر ينظر إلى الأجزاء وإلى المجموع معًا، بل لا يرى المجموع يكون بليغًا إلَّا إذا انتهى إلى ألحان مؤتلفة من حروف في كلمات متآلفة، وكلمات في أسلوب مؤتلف في نغماته وترتيله وتناسق بيانه"[3].

---

[1] محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، دط، دت، (ص/ 73).
[2] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، 200م، (ص/ 148).
[3] المعجزة الكبرى القرآن، مرجع سابق، (ص/ 76).

هذا عن حال الألفاظ القرآنية المفردة، أما حالها بعد انتظامها في الآية وائتلافها مع أخواتها فهذا موضع الإعجاز الأكبر من حيث عدد الناظرين والدارسين فيه قديما وحديثا، وهو أول ما لفت أنظار العرب وتأثروا به وكان سببا في إسلام الكثير منهم، وقد أحسن الجرجاني في وصف جمال ودقة هذا النوع من الإعجاز فقال: "واعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه، وهو أدق من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشعر"[4]، وسيأتي في محاضرة الإعجاز القرآن مزيد بيان وتمثيل عن اللفظ القرآني ومعناه.

2_ الآية:

أ_ **الآية لغة:** تأتي الآية في اللغة على عدة معانٍ منها:

1. المعجزة، ومنه قوله تعالى : (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ) [البقرة/211].
2. العلامة الظاهرة، ومنه قوله تعالى: (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) [البقرة/248].
3. الأمر العجيب، ومنه قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) [المؤمنون/50].
4. العبرة، ومنه قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [البقرة/248].
5. البرهان والدليل، ومنه قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) [الروم/22].
6. تأتي بمعنى الجماعة: ومنه قولهم: خرج القوم بآياتهم أي بجماعاتهم ...

أما اشتقاقها فهي مشتقة من (التأيي) بمعنى التثبت والإقامة على الشيء[5]، وجمعها: آي وآيات وآياء.

ب_ **الآية اصطلاحا**: هي طائفة (جزء) من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها، ولها مبدأ ومقطع، وهي مندرجة في سورة ومعرفتها توقيفية على القول الراجح[6].

_ وبحث علماء القرآن العلاقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي للآية لما فيه من الفائدة فقال بعضهم: "وقد سميت الآية من القرآن- أو هذه الطائفة منه- آية، لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها من الذي بعدها وانفصاله، فهي بائنة من أختها ومنفردة، ولهذا كان الوقوف على رءوس الآي سنّة متّبعة، وقيل: لما كانت الجملة التامة من القرآن علامة على صدق الآتي بها وعلى عجز المتحدّى بها سمّيت آية. وقد رجّح كثير من العلماء هذا التعليل"[7].

---

[4] أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط5، 1997م، (ص/ 184).
[5] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط1، 1412ه، (ص/ 102).
[6] محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، دار المنار، ط2، 1999م، (ص/ 53).
[7] عدنان زرزور، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، دار القلم، بيروت، ط2، 1998م، (ص/ 133).

ج _ كيف تعرف الآيات: القول الراجح أن معرفتها لا يكون إلا بخبر من النبي صلى الله عليه وسلم، وفي الآيات الطويل والقصير، وأقصرها كلمة واحدة، وأطولها آية المداينة في سورة البقرة (أكثر من 120 كلمة).

د _ عدد الآيات: اتفق العلماء على أن عدد آيات القرآن الكريم ستة آلاف ومائتين آية وزيادة، واختلفوا في الزيادة على عدة أقوال، منها: 6217، 6214، 6220 ...، وسبب هذا الاختلاف هو " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف على رؤوس الآي تعليما لأصحابه أنها رؤوس آي حتى إذا علموا ذلك وصل صلى الله عليه وسلم الآية بما بعدها طلبا لتمام المعنى فيظن بعض الناس أن ما وقف عليه النبي صلى الله عليه وسلم ليس فاصلة فيصلها بما بعدها معتبرا أن الجميع آية واحدة والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها"[8]، والجدير بالتنبيه أن العلماء قللوا من أهمية هذا الخلاف ما دام أنه متعلق بمجرد تقطيع القرآن الكريم وأن معاني الابتداء والوقف المختلف فيها يمكن تخريجها على وجه حسن ولا أثر لذلك على أي زيادة أو نقصان في القرآن الكريم.

3_ السورة:

أ _ **السورة لغة**: قال ابن فارس: السين والواو والراء أصل واحد يدل على علو وارتفاع[9]، وجمعها سُور وسورات، وقيل أصلها من السؤر وهو القطعة من الشيئ.

ب _ **السورة في القرآن**: هي طائفة من آيات القرآن مسماة باسم خاص لها فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات[10]، قال الإمام الزركشي: "فإن قيل فما الحكمة في تقطيع القرآن سورا؟ قلت: هي الحكمة في تقطيع السور آيات معدودات لكل آية حد ومطلع حتى تكون كل سورة بل كل آية فنا مستقلا وقرآنا معتبرا، وفى تسوير السورة تحقيق لكون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله تعالى، وسورت السور طوالا وقصارا وأوساطا تنبيها على أن الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهى معجزة إعجاز سورة البقرة، ثم ظهرت لذلك حكمة في التعليم وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها يسيرا يسيرا تيسيرا من الله على عباده لحفظ كتابه"[11].

ج_ **من سمى آيات القرآن**: ذهب السيوطي إلى أنها مسماة بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، هذا وقد يكون للسورة اسمان فأكثر، وقد اعتنى الإمام البقاعي في تفسيره ببيان أسماء السور مثل سورة الفاتحة تسمى: أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والأساس والمثاني والكنز والشافية والكافية والواقية والشفاء

---

[8] مناهل العرفان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص (1/ 344).

[9] أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، دط، 1979م، ص (88/3).

[10] نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق، ط1، 1993م، (ص/ 39).

[11] محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - بيروت ، 1391ه، ص (263/1).

والرقية والحمد والشكر والدعاء والصلاة، وسورة البقرة تسمى السنام والذروة والزهراء والفسطاط ، وسورة "براءة" اسمها أيضًا التوبة والفاضحة والبحوث والمبعثرة والمثيرة والحافرة والمخزية والمشردة والمرشدة والمنكلة والمدمدمة وسورة البعوث وسورة العذاب والمقشقشة، وسورة ص تسمى سورة داود، وسورة النحل تسمى النعم ... وغالب السور لها اسم واحد، ومهما يكن عدد اسم السورة فإن له علاقة مع مضمونها كما بينه الإمام البقاعي[12].

د_ **عدد سور القرآن وأقسامها**: تبلغ عدد سور القرآن الكريم أربعة عشر ومائة سورة، يقسمها العلماء إلى أربعة أقسام لكل منها اسم معين، وهي الطّوال والمئين والمثاني والمفصّل.

_ **الطّوال**: سبع سور: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، وأخيرا يونس أو «الأنفال وبراءة» معا لعدم الفصل بينهما بالبسملة.

_ **المئون:** هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

_ **المثاني**: هي التي تلي المئين في عدد الآيات، وقال الفراء: هي السور التي آيها أقل من مائة آية لأنها تثنّى- تكرّر وتعاد- أكثر من الطوال والمئين.

_ **المفصّل**: هو أواخر القرآن، وصحّح النووي أن أوّله «الحجرات»، وسمّي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة[13].

---

[12] محمود توفيق محمد، الإمَامُ البِقَاعِيّ جهادُه ومنهاجُ تأوِيله بلاغة القرْآن الكَرِيم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1424ه، (ص/ 212).

[13] مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، مرجع سابق، (ص/ 135).

المحاضرة الخامسة: القصة القرآنية: خصائصها وأهدافها.

1_ تعريف القصة:

أ_ **لغة**: القصة لغة من القص وهو تتبع الأثر، يقال: قصصتُ أثره أي تتبعته، قال تعالى: (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) [الكهف/64] أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا عليه، وقال على لسان أم موسى: (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ) [القصص/11] أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه، وتأتي القصة بمعنى الأمر والخبر والشأن والحال، وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة والحوادث الواقعة.

ب_ **في الاصطلاح**: الإخبار عن قضية ذات مراحل يتبع بعضها بعضًا[14].

2_ صفات القصص القرآنية وأنواعها: قصص القرآن الكريم هي أصدق القصص لقوله تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء/87] وذلك لتمام مطابقتها للواقع، وهي أحسن القصص لقوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) [يوسف/3]، وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى، وهي أنفع القصص لقوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) [يوسف/111] وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

أ_ **النوع الأول**: قصص الأنبياء، وقد تضمنت دعوتهم إلى قومهم والمعجزات التي أيدهم الله بها وموقف المعاندين منهم ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصة نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ب_ **النوع الثاني**: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة وأشخاص غير مرسلين، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين ، وقارون ، وأصحاب السبت ، ومريم ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم.

ج_ **النوع الثالث**: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كغزوة بدر وأُحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك..

---

[14] محمد بن صالح العثيمين، أصول في التفسير، المكتبة الإسلامية، ط1، 2001م، (ص/ 50).

3_ فوائد قصص القرآن:

للقصص القرآني فوائد كثيرة جدا منها:

- إيضاح أسس الدعوة إلى الله وبيان أصول الشرائع التي بُعث بها كل نبي.

- تسلية وتثبيت قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم وقلوب الأمة المحمدية على دين الله تعالى، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجندة، وخذلان البطل وأهله.

- تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم.

- مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل.

- والقصص القرآني ضرب من ضروب الأدب يصغى إليها السامع، وترسخ عبره في النفس.

- بيان حكم الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص.

- بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين.

- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين.

- ترغيب المؤمنين في الإيمان والثبات عليه والازدياد منه بعلمهم نجاة المؤمنين السابقين وانتصارهم.

- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم.

- إظهار صدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال، قال تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) [هود/49][15].

4_ ظاهرة تكرار القصة في القرآن الكريم:

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير سورة، فالقصة الواحدة قد يتعدد ذكرها في القرآن، ومن القصص القرآنية مالا يأتي إلا مرة واحدة مثل قصة لقمان وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكررًا حسب ما تدعو إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر وبالتالي فهو تكرار إيجابي مليء بالمعاني الجديدة لمن تأمله، ومن حكمة هذا التكرار:

أ- بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة،

---

[15] محمد معبد، نفحات من علوم القرآن، دار السلام، القاهرة، ط2، 2005م، (ص/ 108).

والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب الأول، فلا يمل الإنسان من تكرارها بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

ب- قوة الإعجاز: فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة واحدة منها أبلغ في التحدي.

ج- الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرتها في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام، كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل.

د- اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة، فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

ه- مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبًا فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.

و- ظهور صدق القرآن وأنه من عند الله حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض[16].

5_ قصص القرآن بين التصديق والتشكيك:

لقد تعرض كتاب الله عز وجل لعدد من الشبهات التي يذيعها أعداؤه وأذيالهم ممن يدعون الإسلام، ومن ذلك ما قيل حول الفن القصصي في القرآن الكريم أنه عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ، وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادث تصويرًا فنيًا، وأن القرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا في عد القصص القرآني تاريخًا يعتمد عليه[17]..

والمسلم الحق هو الذي يؤمن بأن القرآن كلام الله تعالى، وأنه منزه عن ذلك التصوير الفني الذي لا يعنى فيه بصدق الواقع التاريخي، وليس قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية تصاغ في صور بديعة من الألفاظ المنتقاه والأساليب الرائعة، وتلك الأخبار التاريخية التي تضمنها القصص القرآني هي جزء من القرآن الذي لم يستطع أحد أن يكذب منه شيئا منذ نزل، بل إن العلوم الحديثة والمتقدمة تثبت صدق كل شيئ فيه بالأدلة الدامغة، ومن ادعى العكس فعليه بالدليل القوي المكافئ لأدلة العلوم الحديثة.

ولعل صاحب تلك الشبهة درس فن القصة في الأدب، وأدرك من عناصرها الأساسية الخيال الذي يعتمد على التصوير، وأنه كلما ارتقى خيالها ونأى عن الواقع كثر الشوق إليها، ورغبت النفس فيها واستمتعت بقراءتها ثم قاس القصص القرآني على القصة الأدبية.

وليس القرآن كذلك فإنه تنزيل من عليم حكيم، ولا يرد في أخباره إلا ما يكون موافقًا للواقع، وإذا كان الفضلاء من الناس يتورعون من أن يقولوا زورًا ويعدونه من أقبح الرذائل المزرية بالإنسانية، فكيف

---

[16] نفحات من علوم القرآن، مرجع سابق، (ص/ 108).

[17] مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، مرجع سابق، (ص/ 320).

يسوغ العاقل أن يلصق الزور بكلام ذي العزة والجلال؟ فالله تعالى هو الحق وما قصه في القرآن الكريم هو الحق، (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ) [الكهف/13][18].

6_ التربية بالقصص القرآني.

للقصة القرآنية وظيفة تربوية كبيرة لا يحققها لون آخر من ألوان الأداء اللغوي، ذلك أن القصة القرآنية تمتاز بمميزات جعلت لها آثارًا نفسية وتربوية بليغة ومحكمة وبعيدة المدى على مر الزمن، مع ما تثيره من حرارة العاطفة ومن حيوية وحركية في النفس، تدفع الإنسان إلى تغيير سلوكه وتجديد عزيمته بحسب مقتضى القصة وتوجيهها وخاتمتها والعِبرَةِ منها، وتتجلى أهم هذه المميزات التربوية فيما يلي:

أ_ تشد القصة القرآنية القارئ وتوقظ انتباهه دون توان أو تراخٍ، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقفها والتأثر بشخصياتها وموضوعها حتى آخر كلمة فيها.

ذلك أن القصة تبدأ غالبًا بالتنويه بمطلب أو وعد أو الإنذار بخطر أو نحو ذلك مما يسمى عقدة القصة، وقد تتراكم قبل الوصول إلى حل هذه العقدة مطالب أو مصاعب أخرى تزيد القصة حبكًا، كما تزيد القارئ أو السامع شوقًا وانتباهًا وتلهفًا على الحل أو النتيجة، ففي مطلع قصة يوسف مثلاً، تعرض على القارئ رؤيا يوسف عليه السلام يصحبها وعد الله على لسان أبيه بمستقبل زاهر ونِعَم من الله يسبغها على الأسرة الفقيرة المتعثرة الداعية إلى الله، وتتتابع المصائب والمشكلات على بطل القصة يوسف عليه السلام ويتابع القارئ اهتمامه بانتظار تحقيق وعد الله تعالى، وترقبا لانتهاء هذه المصائب والمشكلات بتلهف.

ب_ تتعامل القصة القرآنية مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة متمثلة في أهم النماذج التي يريد القرآن إبرازها للكائن البشري، ويوجه الاهتمام إلى كل نموذج بحسب أهميته، فيعرض عرضًا صادقًا يليق بالمقام ويحقق الهدف التربوي من عرضه، ففي قصة يوسف يعرض نموذج الإنسان الصابر على المصائب في سبيل الدعوة إلى الله (في شخص يوسف)، ونموذج المرأة المترفة تعرض لها حبائل الهوى ويملأ قلبها الحب والشهوة، ويدفعها إلى محاولة ارتكاب الجريمة، ثم إلى سَجن إنسان بريء مخلص، لا ذنب له إلا الترفع عن الدنايا والإخلاص لسيده، ومراعاة أوامر ربه، ونموذج إخوة يوسف: تدفعهم هواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة ومواجهة آثار الجريمة والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة. ونموذج يعقوب : الوالد المحب الملهوف على أبنائه، يعرض القرآن كل هذه النماذج البشرية عرضًا واقعيًا نظيفًا من غير إفحاش ولا إغراء بفاحشة أو جريمة، كما يفعل مؤلفو القصص التي يسمونها واقعية أو طبيعية من روادِ جاهلية القرن العشرين، ذلك أن من أهم غايات القصة القرآنية التربية الخلقية عن طريق علاج النفس البشرية علاجًا واقعيًا.

فالقصة القرآنية ليست غريبة عن الطبيعة البشرية، ولا محلقة في جو ملائكي محض، لأنها إنما جاءت

---

[18] مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، مرجع سابق، (ص/ 320).

علاجًا لواقع البشر، وعلاج الواقع البشري لا يتم إلا بذكر جانب الضعف والخطأ على طبيعته، ثم بوصف الجانب الآخر الواقعي المتسامي الذي يمثل الرسل المؤمنون، والذي تؤول إليه القصة بعد الصبر والمكابدة والجهاد والمرابطة، حيث تنتهي القصة بانتصار الدعوة الإلهية، ووصف النهاية الخاسرة للمشركين.

ج_ تربي القصة القرآنية العواطف الربانية وذلك عن طريق إثارة الانفعالات كالخوف والترقب، والرضا والارتياح والحب، والتقزز والكره، كل ذلك يثار في طيات القصة بما فيه من وصف رائع ووقائع مصطفاة، فقصة يوسف مثلاً تربي الصبر والثقة بالله، والأمل في نصره، بعد إثارة انفعال الخوف على يوسف، ثم الارتياح إلى استلامه منصب الوزارة.

وتربي العواطف عن طريق توجيه جميع تلك الانفعالات حتى تلتقي عند نتيجة واحدة هي النتيجة التي تنتهي إليها القصة، كشكر الله في آخر قصة يوسف، ومواجهة الشر الذي صدر عن إخوة يوسف من أجل أن يعترفوا بخطئهم ويستغفر لهم أبوهم ...

وتربي العواطف عن طريق المشاركة الوجدانية حيث يندمج القارئ مع جو القصة العاطفي حتى يعيش بانفعالاته مع شخصياتها، ففي قصة يوسف يعتري القارئ خوف أو قلق عندما يراد قتل يوسف وإلقاؤه في الجب، ثم تنشرح العواطف قليلاً مع انفراج الكربة عنه، ثم يعود القارئ إلى الترقب عندما يدخل يوسف دار (العزيز)، وهكذا يعيش القارئ مع يوسف في سجنه وهو يدعوا إلى الله، حتى يفرح بإنقاذه، ثم بتوليه وزارة مصر، وبنجاة أبيه من الحزن..

د_ تربي القصة القرآنية الفرد على الإقناع الفكري عن طريق التفكير والتأمل، فالقصص القرآني لا يخلو من محاورات فكرية ينتصر فيها الحق، وتثبت صحته وعظمته في النفس وأثره في المجتمع وتأييد الله له، ففي قصة يوسف نجد حوارًا يدور بينه وبين شابين عاشا معه في السجن فدعاهما إلى توحيد الله، وقصة نوح كلها حوار بين الحق والباطل، وكذلك قصة شعيب وصالح وسائر الرسل، حوار منطقي مدعوم بالحجة والبرهان يتخلل القصة، ثم تدور الدوائر على أهل الباطل ويظهر الله الحق منتصرًا في نتيجة القصة، ويهلك الباطل وأهله..

وبهذا تحيط القصة القرآنية نفس الناشئ بالتربية الربانية من جميع جوانبها العقلية والوجدانية والسلوكية.

7_ أغراض القصة القرآنية:

ليست القصة القرآنية عملاً فنيًا مطلقًا مجردًا عن الأغراض التوجيهية، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق أغراضه الدينية الربانية، فهي إحدى الوسائل لإبلاغ الدعوة الإسلامية وتثبيتها، والتعبير القرآني مع ذلك يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني، وبهذا امتازت القصة القرآنية بميزات تربوية وفنية، ذكرنا بعضها في الصفحات الماضية في عنصر فوائد القصة القرآنية ولاحظنا أن القصص

القرآني يَجعَل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، وإثارة الانفعالات وتربية العواطف الربانية، وسنعرض للقارئ بعض الأغراض الأخرى للقصة القرآنية:

_ الغرض العام للقصة القرآنية هو الاعتبار والتعلم.

_ ومن أغراض القصة القرآنية بيان أن الدين كله من عند الله، وأن الله ينصر رسله والذين آمنوا ويرحمهم وينجيهم من المآزق والكروب، من عهد آدم ونوح إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم، وأن المؤمنين كلهم أمه واحدة والله رب الجميع.

وكثيرًا ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة معروضة عرضًا سريعًا بطريقة خاصة لتؤيد هذه الحقيقة، كما في سورة الأنبياء حيث ورد ذكر موسى وهارون ثم لمحة موجزة عن قصة إبراهيم ولوط وكيف نجاهم الله وأهلك قومهما وقصة نوح وجانب من أخبار داود وسليمان وما أنعم الله عليهما، ثم أيوب حين نجاه الله من الضر، وورد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وكلهم من الصابرين والصالحين، وذا النون وزكريا ويحيى، ويختم الله هذه السلسلة من الأنبياء بخبر مريم وابنها عيسى عليهما السلام، ثم يخاطب الله مباشرة جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم بقوله: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 92].

فتبين من هذه السورة الكريمة تقرير الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل وهو أن جميع الأنبياء يدينون دينًا واحدًا ويخضعون لرب واحد يعبدونه وحده لا يشركون به شيئًا، وعندما نستعرض خبر كل نبي نجد أن الله قد شد أزره ونصره ونجاه من الكرب الذي نزل به، أو المأزق الذي أوشك أن يقع فيه.

وجاء في سورة العنكبوت لمحة خاطفة عن قصة كل نبي مختومة بالعذاب الذي عذب به المذنبون من قومه حتى ختمت جميع القصص المجملة بقوله تعالى: (فَكُلاً أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مِنْ خَسَفْنا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا، وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ) [العنكبوت: 40] فعلى قارئ القرآن الكريم أن يستحضر مكان الموعظة والذكرى من كل قصة، ليحاور نفسه حوارًا يوجهه إلى التأثر بها والعمل بمقتضاها.

_ ومن أغراض القصة القرآنية تنبيه أبناء آدم إلى خطر غواية الشيطان وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم إلى أن تقوم الساعة، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجس في النفس يدعو إلى الشّر، ولما كان هذا موضوعًا خالدًا فقد تكررت قصة آدم في مواضع شتى.

_ ومن أغراض القصة القرآنية بيان قدرة الله تعالى بيانًا يثير انفعال الدهشة والخوف من الله لترسيخ عاطفة الخشوع والخضوع والانقياد ونحوها من العواطف الربانية، كقصة الذي أماته الله مائة عام ثم

بعثه، وقصة إبراهيم والطير الذي رجع إليه بعد أن جعل على كل جبل جزءًا منه، قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [البقرة/260].

8_ خصائص القصة القرآنية ومميزاتها.

تختص القصة القرآنية بعدد من الخصائص لا تكاد تجدا في نوع آخر من القصص، وفي معرفة هذه الخصائص الوقوف على قدرة الله تعالى وسمو كلامه وعجز البشر أمامه.

_ تمتزج القصة في القرآن الكريم بموضوعات السورة التي ترد فيها امتزاجاً عضوياً لا مجال فيها للفصل بينها وبين غيرها من موضوعات السورة، بحيث لو حذفنا القصة من موقعها الوارد في السورة لاختل المعنى، لأن القصة تسهم في بيان مضمون النص وإيضاحه للقارئ، فلو حذفنا على سبيل المثال، قصة الغراب التي وردت أثناء الحديث عن قصة ابني آدم (قابيل وهابيل) لما استقام المعنى، لأن الغرض من ذكر الغرابين كان لحكمة إلهية هي بيان دفن الموتى.

_ ولا ترد القصة في القرآن الكريم إلا إذا تطلبها المقام واقتضت البلاغة ذكرها، ويذكر الجزء الذي له علاقة بموضوع السورة، ولا تذكر القصة كاملة، فعندما كان الدافع من السورة هو بيان قدرة الله سبحانه وتعالى جاء ذكر قصة أهل الكهف في سورة الكهف، وقصة إحياء الموتى في سورة البقرة، كل في مقامه وموضعه، وقد نستغرب احتجاج الملائكة بأن نسل آدم سيفسدون في الأرض ويسفكون الدماء وهذا الأمر ما زال في علم الغيب في ذلك الوقت عندما أخبرهم الله - سبحانه وتعالى - أنه سيجعل آدم خليفة له في الأرض، كما اتضح ذلك من قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة/30]، ولعل في ذكرهم لسفك الدماء ما يتصل بصلة وشيجة بالدم المسفوك في قصة البقرة، ولذلك ذكرت هذه الجزئية من قصة آدم في هذه السورة فقط.

_ إذا ما تأملنا مقدمة القصة القرآنية فإننا نجد أن الخطاب في الغالب يكون موجهاً للنبي عليه الصلاة والسلام دلالة على أن هذه القصة تساق لأجله ولأجل دعوته إما لتثبيته ولتأكيد دعوته بسوق معجزة جديدة من خلال هذه القصة، وإما لردع معانديه وتخويفهم.

_ تختص القصة القرآنية بالبداية المشوقة كما في سورة الفيل التي ابتدأت بسؤال مثير للاهتمام (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) [الفيل/1]. فالعرب يعرفون أن لعنة الله قد حلت بأصحاب الفيل، ولكنهم بحاجة إلى مزيد من التفاصيل، ثم انطلقت القصة كبدايتها (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ) [الفيل/2]، وما زال الاستفهام قائماً، ثم جاءت الإجابة في ثلاث آيات قصيرات مركزات (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3)

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) [الفيل/3-5].. وهكذا وصفت القصة واقعة الفيل أبلغ وصف، واختتمت بنهاية محكمة أشد الإحكام. وروعة هذه القصة القرآنية ليست في جِدَّةِ موضوعها فهي قصة معروفة عند العرب متداولة بينهم، ولكن روعتها تكمن في القالب الجديد التي عرضت من خلالها وفي أسلوبها الموجز البليغ، فهي تتحدث عن واقعة عظيمة قدمت مختصرة في خمس آيات.

_ وتختص القصة القرآنية بالتنويع في المقدمات، فسورة الكهف ابتدأت بذكر ملخص كامل لوقائعها، ولكن هل أشبع هذا الملخص الرغبة في معرفة تفاصيل هذه القصة؟ كلا، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) [الكهف/13]، فالقارئ والمستمع يتلهف لمعرفة سبب ذهاب الفتية إلى الكهف وما حدث لهم بعد ذلك، وابتدأت سورة يوسف بالتشويق الذي بلغ أعلى درجات الإثارة، ففي مستهل القصة وصف الله تعالى القصص القرآني بأحسن القصص الذي يخرج الناس من غفلتهم، ثم انتقلت للحديث عن الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام وهذا وحده كفيل بإثارة اهتمام القارئ والمستمع وشوقه لمعرفة تفسير تلك الرؤيا، ثم تحدثنا الآيات عن تحذير يعقوب عليه السلام لابنه من رواية تلك الرؤيا لإخوته، وبعد هذا الاستهلال الرائع للقصة تعود بنا الآيات إلى الماضي لتحدثنا عن تآمر إخوة يوسف عليه السلام، ثم تتسلسل الآيات في رواية قصته كاملة.

_ وتختص القصة القرآنية بتنوع المفاجآت فيها واختلاف الأساليب التي تقدم من خلالها، فقد يكتم القرآن سر المفاجأة حتى تتكشف في نهاية القصة، وفي هذا تشويق للقارئ حتى يتم القصة ويعرف نهايتها كما في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، بينما في قصة ملكة سبأ كان السر معروفاً للقارئ في كيفية مجيء العرش إلى سليمان عليه السلام بينما هي لم تكن تعرف، لأنها لمست تشابهاً كبيراً بينه وبين قصرها، فسرد هذه الأحداث بهذه الطريقة فيه إثارة لاهتمام القارئ.

_ وتختص أيضا بالدقة في اختيار الكلمات التي تحمل دلالات عميقة، وتعبر عن أحداث كثيرة بأقل عدد من الكلمات كما في كلمة (تذودان) الواردة في قوله تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) [القصص/23] فهذه الكلمة بينت أن الفتاتين كانتا تحبسان أغنامهما وتمنعانها من الاختلاط بأغنام الآخرين، حتى لا يدعي أحدهم أنها له، وهذا يعني أنهما كانتا تنتظران - لضعفهما - حتى يخف الزحام فتسقيان أغنامهما، وأن أغنامهما كانت تريد الذهاب إلى مورد الماء مع سائر الماشية فكانتا تمنعانها وهذه الكلمة ساهمت في تخيلنا للموقف وما فيه من حركة، والدوافع النفسية التي تدفعهما للتصرف بهذه الطريقة، كل ذلك لخصه القرآن الكريم في كلمة واحدة هي "تذودان" ولاشك أن هذه الكلمة تكشف عن نفسية هؤلاء القوم الذين كان يسيطر عليهم حب الذات، والحرص على مصالحهم الخاصة بهم دون الالتفات إلى حاجة الآخرين للماء، وعدم مراعاتهم لضعف هاتين الفتاتين وكبر سن والدهما، ولذلك لفت

هذا المشهد انتباه موسى عليه السلام وأثار تعجبه، ولما عرف القصة سقى لهما، وهذا يدل على حسن خلقه.

_ وتختص القصة القرآنية بتنوع الصِّيَغ التي يُقدم من خلالها الإنذار للأقوام التي تستحق العذاب بعد استنفاد وسائل الإصلاح كلها، وقد حدثتنا سورة هود عن صيغ الإنذار التي وردت على لسان نوح وهود ولوط وصالح وشعيب عليهم السلام، وعند قراءتنا لصيغ الإنذار نلاحظ المضمون نفسه ولكن الشكل الفني الذي قدم من خلاله كان يختلف باختلاف القوم، بحيث لا يدع مجالاً للشك بأن القرآن الكريم كلام الله، سبحانه وتعالى، ولهذا كان الإعجاز البلاغي هو مناط التحدي كما يتضح لنا كذلك أن الله سبحانه وتعالى ينصر أنبياءه والمؤمنين معهم وينجيهم وينزل عقابه بمستحقيه.

وللإنذار أهمية بالغة في القصة القرآنية لأنه مرتبط بعنصر "العقدة"، لهذا كان الإنذار الأخير في كل قصة قرآنية يشير إلى "الذروة" في تأزم الأحداث، والوصول إلى الذروة يعني قرب حدوث "الحل" الذي كان يأتي في القصص القرآني من خلال معجزة إلهية ترمي إلى إنزال الهلاك التام بالقوم المفسدين، ولهذا كان المشهد الأخير من كل قصة قرآنية يتميز بإنزال كارثة بالمكذبين الذين كانوا يستحقون العقوبة مثل: الطوفان أو الزلزال أو العاصفة المدمرة أو الصيحة، لإظهار أن القوة لله جميعاً، وتحذير مشركي مكة من ملاقاة المصير نفسه، مع الحرص على ربط طرق الإهلاك مع نوعية الذنب المرتكب من قبل المكذبين بالدين بقصد الاعتبار.

_ وتختص القصة القرآنية عن القصة الفنية بأنها تشيع فيها التعليقات التي تلخص مغزى القصة التي تسبق سرد أحداثها أو ستأتي أحداثها، وتفسير أسباب تلك الأحداث بما يبررها حتى يكون لها وقعها في النفوس بما يستخدم في التعقيب عليها من أساليب التذكير والوعظ والزجر، ومن الأمثلة على ذلك طريقة عرض قصة أهل الكهف إذ تلتقي بملخصها في ثلاث آيات ثم يأتي التفصيل، فالقصة القرآنية تحرص على إبراز المغزى في حين لا يجوز ذلك في القصة الفنية، والمحلل الأسلوبي لا يحتاج إلى تبرير مثل هذا المنهج الذي يتناسب مع غايات القرآن الكريم الدينية، فالقصة القرآنية قصة إيمان وهدفها تربية العقيدة في الوجدان الإنساني، والقرآن الكريم جاء لكل العقول والاتجاهات، وبعض الناس قد لا يستطيع استنتاج العبرة من القصة، فكان لابد من إرشاده إلى الغرض الذي تجسده بأسلوب يغلب عليه التبسيط أحياناً لتوضيح العبرة ليفهمها كل إنسان، ولكن هذا لا يعني أن القصة القرآنية تأخذ بالتقرير والمباشرة وإنما هي تهتم بالتصوير والتجسيم والاستحضار والإيحاء، فسورة "يوسف" من أولها إلى آخرها لم تقل شيئاً عن وسامة يوسف عليه السلام، لكننا نرى الوسامة الأخاذة في أعين النسوة اللائي عندما رأينه قطعن أيديهن لفرط الذهول من وسامته، فحقيقة جمال ووسامة يوسف قدمت لنا مجسمة تكاد تنطق في قوله تعالى: (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) [يوسف/31] والتضعيف

في الفعل (قَطَّعن) أسهم في إيضاح الموقف وتصويره بحيث يمكننا تخيل مشهد النسوة وهن يقمن بتقطيع أيديهن، فتشبيه يوسف بالملك الكريم يعني أن جماله فاق الوصف.

_ وتختص القصة القرآنية بتنوع المفاجأة وطريقة العرض فيها، فخضوع القصة القرآنية للغرض الديني لم يمنع كمال خصائصها الفنية، بل انفردت بخصائص غاية في الجمال لم تعرفها القصة الفنية من قبل ولا من بعد، من أهمها تنوع المفاجأة وطريقة العرض.

بالنسبة لطريقة المفاجأة فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن السامعين حتى يكشفه لهم معا في آن واحد كما في قصة موسى مع الخضر، وتارة يكشف بعض السر للسامعين دون البطل كما في قصة بلقيس مع سليمان، وتارة يكشف السر تماما من البداية كما في قصة أصحاب الجنة.

أما طريقة العرض فمرة يذكر ملخصا للقصة ثم يعرض التفصيلات كقصة أهل الكهف، ومرة يذكر نتائج القصة ودروسها ثم يفصل فيها كما في قصة موسى في سورة القصص وقصة يوسف، ومرة يذكر القصة من دون مقدمة ولا ملخص ويكون في طياتها ما يغني عن ذلك كما في قصة مريم وابنها عليهما السلام، ومرة يورد القصة على شكل حوار تمثيلي كما في قصة إبراهيم مع أبيه وقومه، ومرة يوردها على شكل إخباري سردي ... وهذا التنوع في المفاجأة وطريقة العرض يجعل القصة القرآنية فريدة في إبداعها غير خاضعة لقواعد القصة الفنية في شيء[19].

[19] عبد الله شحاتة، علوم التفسير، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1421ه/ 2001م، ص 117 وما بعدها.